عم كبير . وغم كثير ...

رأفت إبراهيم عبد الواحد

منذ اختفى طاهر زين الدين من البلد اختفت من حياة صديقه الصدوق رأفت إبراهيم عبد الواحد أشياء كثيرة.. جلسة العصارى تحت شجرة ذقن الباشا.. حكايات الأفلام التى يدخلها طاهر قبل أن يشجع صديقه على مشاهدتها.. إيشاره بحلقة شعر خاصة فى غير مواعيد دكانهم عندما يغلق عليهما بابه من الداخل.. ثم ما يشاركه فيه طاهر من حديث حول ليلى بنت العم ساكنة القلب وقاطنة القاهرة وزائرة البلد كل صيف مع أبيها وأمها وشقيقها كمال.. أسابيع يقضونها عندهم يعيش رأفت على ذكراها عامًا بأكمله حتى تعود فى الصيف التالى أبهى جمالًا وأعذب حديثًا وأقل شقاوة..

رأفت لا يدرى لم يكن للأخ الفقير فى القرية أخ ثرى فى المدينة؟.. ولم يسأل والده الأسطى إبراهيم كيف انتهى به الحال أن يكون هو الأسطى هنا مقابل أن يكون عمه حمزة عبد الواحد هو الأستاذ هناك فى القاهرة؟

منذ صغره وهو يرى أن كل الأشياء التى يأتى بها عمه من القاهرة إلى البلد تختلف عن أشيائهم.. فعمه يرتدى بدلة فخمة ورباط عنق ونظارة وله كرش كبير وتفوح منه رائحة العطر.. عمه يومئ برأسه لوالده ليأتى بالحقائب من التاكسى المخصوص الذى استقله مع زوجته وولديه. أبوه يهرول ليأتى بالحقائب.. الحقائب ضخمة ولامعة وثقيلة.. زوجة عمه تقبل أمه بشوق.. أمه ضعيفة عجفاء تكاد تختفى فى حضن سلفتها البدينة ذات الفستان الهفهاف الملىء بنقش الزهور. كمال الذى فى مثل عمره أتى فى

الحقائب بملابس كثيرة ومتنوعة وبندقية الخرطوش التى سيصطاد بها العصافير.. ليلى تسرع من التاكسى إلى زوجة عمها وتقبلها، وتبحث عنه، يصافحها مسرعًا، قبل أن يهرول لرفع الحقائب.. تهمس له فى أذنه.. عطرها ينفذ إلى روحه.. وابتسامتها تدير عقله.. وكلماتها هى نفسها الكلمات التى قالتها العام الماضى.. والعام الذى قبله..

ـ «ستأتى معى لنصطاد السمك قبل أن تذهب مع كمال ليصطاد العصافير إياك أن تتركنى وتذهب معه قبلى..»

وعند الطرف القصى من ترعة وجه البلد كانا يجلسان على شاطئها فى وقت الأصيل بسنارتين، هى تحاول اصطياد السمك، وهو يحاول اصطياد ضحكاتها العذبة، وعندما اختارت أن تشدو بأغنية «أهواك» وأرى وجهه بعيدًا خوفًا أن تخجلها نظراته نحوها لكنها لم تشعر بالخجل مثله، فهى تترك نفسها على سجيتها، وحتى عندما مر عليهما رهط من أبناء البلد العائدين من حقولهم قرب المغيب ظن أنها ستتوقف عن الغناء خجلًا منهم.. لكنها لم تفعل، ولم تحس بوجودهم وهم يبادلونه النظرات الباسمة.

قال لطاهر زبن الدين قبل أن يهرب من البلد:

ـ «كأنها يا طاهر تبتعد عنى عامًا بعد عام..»

ويقول له طاهر:

ـ «إنها عاقلة.. احترمت أنوثتها. أتريدها أن تظل طفلة مدى الحياة؟»

وفى الوقت الذى يتمكن فيه من الجلوس إلى فريد هنيدى إذا عاد مبكرًا من تدريباته الشاقة فى المدينة يبثه أحزانه:

ـ «ليلى لن تأتى هذا الصيف يا فريد..»

ـ «هل نسيت السبب الذى قلته لى؟. قل إنك تريد التحدث عنها، وتخلق مناسبة لذلك..»

ويبتسم رأفت فى مرارة.. ويقول لنفسه:

ـ «فريد كلامه صحيح؛ فقد عرف منى أنها لن تحضر فى إجازة هذا الصيف لأن كمال

يستعد لدخول الجامعة.. ويتلقى تدريبات مهارية استعدادًا لدخول كلية الشرطة أو الكلية الحربية، إذن فأنا أختلق أى مناسبة فعلًا حتى أهنأ بالحديث عنها..»

وقتلًا للوقت، وكسبًا لبعض المال، ولأنه لم يجد حوله من يشاركه يومه الطويل، قال لأبيه:

ـ «الريس عفيفى قريب منك فى العمل بغيط المصلحة.. أريد أن أعمل معه فى هذه الإجازة» ووافقه والده: «فعلًا يا رأفت اليد البطالة نجسة.. أنت أولى باليومية.. تساعدنا فى المصاريف..»

ولأن الريس عفيفى لم يهضم فكرة أن يكون رأفت ضمن أنفاره البؤساء وهو الذى سيقبض بيمينه على شهادة عليا بعد عدة سنوات يسارع فيعرض عليه أمرًا:

ـ «إيه رأيك يا أستاذ، تجلس فى منزلك معززًا مكرمًا وأنا سأقيد لك يوميتك وآتيك بها حتى باب منزلك؟..»

ويقول له رأفت:

ـ «بهذا الشكل تكون قد أعطيتنى صدقة، لكن من جيب الحكومة، أنا يا ريس عفيفى جئت لأعمل فعلًا.. اليوم طويل أطول من قطار البضاعة.. طاهر صديقى أنت تعلم أنه ترك البلد.. وفريد فى التدريب باستمرار.. وفتيان مع عجوله ليل مساء.. وأمير مكتئب ومرعوب من النتيجة.. والسيد أخوه عائش مع نفسه.. فأين سأذهب؟»

وما لم يقله رأفت أنه بحاجة إلى أجرة اليوم التى هى فى نظره كالنواة التى تسند الزير.. فالأسطى إبراهيم عبد الواحد ينعم بهذا اللقب شكلًا لا موضوعًا.. فهو «ظهورات» فى المصلحة وليس موظفًا بمرتب يزيد عامًا بعد عام.. ودوره الذى تعلمه هو تشغيل ماكينة الرفع التى تنقل المياه من الرياح العمومى إلى الأراضى عالية المنسوب فى أحواض الزمام.. عمل سهل وبسيط يقطعه نومًا بجوار الماكينة منذ أن يديرها وحتى يغلقها بعد ورديته..

* * *

قال له أبوه:

ـ «اختر كلية الزراعة..»

ولم يتعجب.. فالمهندس الزراعى هو أعلى من تعامل معهم الأسطى إبراهيم من الموظفين.. ثم أضاف أبوه:

ـ «واختر زراعة القاهرة.. بالذات». وخفق قلبه؛ إذ أحس أن والده سيأتى بقول مهم هو يعلمه:

ـ «انزل على عمك طَوّالى.. ستسكن عنده.. سيضعك فى نن عينيه.. قل له يا عمى أبى يقول لك أصبح عندك الآن ولدين وبنت.. وسأرسل لك خمسة جنيهات كل شهر..»

* * *

لم يكن قد رآها عندما استقبله عمه بوجه جامد به تعبيرات قلقة لا تبعث على الراحة، انكمش قليلًا ونعى حظه التعس أن جاءت زيارته المفاجئة فى وقت يبدو أن مزاج عمه ليس على ما يرام..

ـ «ناوى على أى كلية إن شاء الله؟»

ـ «الزراعة..»

ـ «أى زراعة..؟»

ـ «كلية الزراعة..»

ـ «أعرف.. ولكن أين؟.. القاهرة. الإسكندرية؟»

ـ «القاهرة بإذن الله..»

ـ «وطبعًا ستسكن فى المدينة الجامعية..»

ـ «لا أدرى إن كانت المدينة ستقبلنى أم لا؟..»

ـ «وإن لم تقبلك.؟»

تلجلج لحظيًّا وحار فى الإجابة، ثم تذكر رسالة والده:

ـ «والدى حملنى رسالة إلى حضرتك..»

ـ «رسالة؟.. أى رسالة؟..»

ـ «يقول لحضرتك أنت الآن أصبح عندك ولدان وبنت..»

استدار عمه بعصبية فى مواجهته:

ـ «الله.. الله.. هذا ما كنت أخشاه.. أن يفعلها إبراهيم ويرمى علىّ بلاه.. لأ يا أستاذ، البيت الذى به بنت لا يسكنه غريب.. قل له هذا الكلام»

أوشك أن يلقى أمامه بالرد الطبيعى من أنه ليس بغريب، لكنه تراجع إلى صمته لينجو بنفسه من مهانة جديدة.. ولم يطل صمتها؛ فقد دخلت زوجة عمه:

ـ «رأفت.. تعالَ يا رأفت.. أريدك فى كلمة.. بالإذن يا حاج»

وفى فراندة غرفة نومها وجدها هناك تتأرجح على كرسى هزاز، توقفت عن الاهتزاز، وقامت وصافحته، ثم جلست بجوار أمها وهى تتفحص وجهه المحتقن:

ـ «بابا صوته كان عاليًا، لا تزعل منه..»

ـ «الصوت العالى أمره سهل.. لكنى لم أكن أنتظر أن أوصف بالبلاء.. أو يضعنى فى حكم الغريب»

ـ «أنت مخطئ.. كان يجب....»

أوقفتها أمها بإشارة من يديها:

ـ «عن إذنك يا ليلى.. اسمع يا رأفت.. وحياتى عندك.. وحياة ليلى.. إياك أن تذكر لوالدك شيئًا مما سمعته الآن.. ووحياتى عندك مرة ثانية تفعل ما سأطلبه منك الآن.. لا تضع فى رغباتك زراعة القاهرة حتى إذا جاء ترشيحك للإسكندرية تكون قد أنقذت علاقة بين والدك وعمك ممكن تتحول لعداوة.. أنا أعرف عمك»

و.. قاطعتها ليلى بعصبية..

ـ «ما معنى كلامك هذا يا ماما؟.. هل بابا أخطأ؟.. بابا لم يخطئ.. وكان يجب على رأفت أن يرفض طلب عمى إبراهيم.. ولا يصنع أزمة بين أخوين..»

هاله ما يسمعه الآن.. دقق فيها النظر.. اكتشف أنها قريبة الشبه بأبيها.. ثم تذكر حادثًا بعيدًا.. لا يدرى كيف كان قد نساه:

ـ «أنا فعلًا غلطان.. لأنى وأنا فى ثانية إعدادى والدى حاول يرجعنى معاكم مصر علشان عمى يعالجنى من البلهارسيا.. عمى رفض..»

بادرت زوجة عمه بدفاع جاهز:

ـ «لأ.. هو يومها نصحه أن العلاج متوفر فى الصحة المدرسية..»

وكان لديه هو الآخر ردًّا جاهزًا:

ـ «الصحة المدرسية تكون للطلبة الذين لا يملكون عمًّا كبير الشأن فى القاهرة.. عن إذن حضرتك..»

وخبطت على صدرها منزعجة:

ـ «تستأذن؟.. هل ستسافر على هذا الحال..؟.. والنبى.. والنبى.. اجلس.. ستتغدى معنا..»

ـ «غداؤكم وصل يا زوجة عمى .. عن إذنك ..»

كانت ليلى قد عادت إلى كرسيها الهزاز.. راحت تتأرجح دون أن تتطلع إلى وجهه أو تشارك أمها فى محاولة إثنائه عن السفر، فانطلق إلى موقع حقيبته التى وضعها قرب الباب.. تناولها بهدوء.. وخرج بهدوء.. وهبط الدرج صامتًا.. وما إن استقبله الشارع الصاخب فى حى شبرا المزدهر.. وما إن ابتعد بعيدًا وانعطف إلى الناصية حتى غامت الدنيا فى عينيه.. ولم يعد يرى أمامه.. فقد كان يبكى..